النصر الجزئي والكلي

هناك أسئلة لابد منها هنا، وهي:

ـ هل كان بالإمكان أن ينتصر الإسلام لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات أو قُتِل قبل الهجرة إلى المدينة؟

ـ الجواب: لا طبعاً..

وإذن فإنه لولا نجاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الغار حين الهجرة لما كانت هناك غزوة بدر، ولا فتح مكة، ولا غيره من النصر المؤزر... وللنصر الكبير مقدمات، وأركان، إحرازها هي ذاتها يعد نصراً، لذلك سمّى الله تعالى نجاة النبي صلى الله عليه وسلم، وعدم اكتشاف المشركين له في الغار نصراً.. قال تعالى:

«إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا، ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم»[٣٤].

إن النصر النهائي يتطلب تحقيق انتصارات مرحلية لا يمكن أن يتم إلا بها، مثلما أن فتح مكة لم يكن من الممكن أن يتم لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتُشِف في الغار عند الهجرة وقُتل.

لذلك فإن إغفال الانتصارات المرحلية والاستخفاف بها معناه إغفال

٣٤ ـ التوبة الآية /٤٠

النصر العام، لذلك نلاحظ في الآية التي سلفت أن الله تعالى سمى عدم اكتشاف المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم داخل الغار نصراً.

لنتخيل الآن نبياً قابعاً في غار، ممسكاً عن الكلام وعن الحركة في حذر شديد، كيف يمكن أن نفهم ذلك..؟

أليس هو تقديم للأسباب بأدق ما هو مطلوب فيها من الدقة؟!!

ثم هل يمكن أن يعتبر هذا الفعل منقصة لا تليق بنبي؟

بل، هل يمكن أن يعتبر هذا الفعْل أمراً منافياً للشجاعة والعزة؟!!

إن بعض الجماعات الإسلامية تذهب إلى اعتبار استعمال الحيطة أو التأني جبناً، وتتحدث عن عزة بدر، أو فتح مكة، في الوقت الذي هي فيه ضعيفة في مثل وضع الغار.. فهل يجدر بالنبي أن يخرج من الغار فجأة ليقول للكفار والمشركين:

«إنني لا أخافكم فمعي ربي، ولن تستطيعوا الوصول إليّ؟!!

ولو كان ذلك صحيحاً فلماذا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!!

إن أحد زعماء الجماعات الإسلامية يطلب من اتباعه ألا يستعجلوا، وليهتموا بالدعوة والتربية فإذا بلغوا (١٢٠٠٠) فليطالبوه بأن يقودهم مجاهدين فاتحين، مستدلاً بالوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يغلب اثنا عشر ألفا عن قلة»

والسؤال هو:

ماذا تساوي اثنا عشر ألفاً الآن؟ في الزمن الذي تملك فيه أضعف الدول نصف مليون جندي..؟!!

لقد كان هذا العدد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، في مرحلة ما، جيشاً عرمرماً، أما اليوم فلا. والقضية نسبية، فاثنا عشر ألفاً بالنسبة إلى عدد جيوش المشركين آنذاك رقم جيد، أما اليوم فماذا يساوي هذا الرقم في كرة أرضية يعيش فوقها ستة مليارات ونصف المليار بشري؟!!

إن (١٢٠٠٠) اليوم ينطبق عليهم ولا شك واقع الغار، ويجب أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة، وقيادتهم إلى الحرب والمواجهة معناه قيادتهم إلى الفناء، فإذا ما فكر هؤلاء بعزة بدر بدل تخفّي الغار فإنهم ولاشك سيخالفون نواميس النصر التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحققها تتابعاً صوب النصر الشامل.

إن التخفي، حين يقتضيه الواقع، نصر، والفرار نصر، رغم أن البعض قد يراه هزيمة فيقابل جيش المسلمين بالتعيير: «يا فرّار يا فرّار» فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «بل هم الكرّار»، وقد انسحب خالد بجيش المسلمين في إحدى المعارك، واعتبر ذلك نصراً.

إن للضعف نصره، كما للقوة نصرها، والقوي لا يقبل منه النصر إلا إذا كان بمعنى الفوز في تلاقي قوتين، أما الضعيف فنصره في نجاته. وهذه الثنائية هي التي أشار إليها نبي الله لوط عليه السلام، حين قال لجهلة قومه: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾[٣٥]، والقوة للمواجهة، أما الإيواء إلى ركن شديد، فقد يكون من معانيه الاختباء للنجاة، وقد أوحى الله تعالى إلى لوط أن يخرج من مدينته متخفياً، وذلك نصر، وهو تطبيق للخيار الثاني الممكن «أو آوي إلى ركن شديد»، قال تعالى:

٣٥ ـ هود آية ـ ٨٠

﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطْع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب..؟﴾[٣٦]، و«لن يصلوا إليك» في حد ذاته نصر، سواء بالنسبة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الغار، أو للوط عليه السلام في خروجه ليلاً.

لذلك فإن الجماعة أو الحركة التي لا تحسن المحافظة على أبنائها، هي في الحقيقة جماعة فاشلة. إذ أن المحافظة الفعلية على الأتباع نصر، والاحتياط لذلك بضبط برنامج عملي يحقق ذلك، نصر أيضاً.. وضابط ذلك، أن الموت في غير مكانه خسارة، أما الموت في موطنه مثلما هو الأمر في الجهاد ففضيلة، رغم أن بقاء المجاهد على قيد الحياة أحسن من ناحية ما سيقدم لأمته من استشهاده.

فلماذا نرى الكثير من المسلمين يحسنون الموت ولا يحسنون الحياة؟!

٣٦ ـ هود آية ٨١

obeikandl.com